

# الوسيلة الأدبية للشيخ الحسين بن أحمد المرصفي

بمقام  
الاستاذ محمد عبد الغنى حسن

والفقهاء والأدباء والشعراء وأصحاب الفنون والصناعات :  
فالبغدادى - وهو نسبة إلى بغداد - علم يلتقى عليه  
كثير من الرجال ما بين حافظ ومقرئ ومحدث ومؤرخ  
ومؤدب ومتصوف ومتكلم وفقه وشاعر . والبلسنى  
- وهو نسبة إلى مدينة بلسية بالأندلس - علم يلتقى  
عليه طائفة من رجال الفكر العربى تقرب من العشرين  
عداً . والسلاوى - وهو نسبة إلى مدينة « سلا »  
بالمغرب - علم يشترك فيه بضعة عشر من الرجال  
على رأسهم السلاوى المؤرخ صاحب كتاب « الاستقصا »  
المشهور .

ولقد دخلت قرية « مرصفا » ميدان إنجاب الرجال  
من العلماء والأدباء من قديم ، فاليها ينسب الشيخ  
نور الدين خليل المرففى المدفون على مقربة من ضريح  
السيدة عائشة ، وقد كان صوفياً مشهوراً بالزهد  
والنقوى ، وهو والد الإمام الصوفى الشيخ على خليل  
المرففى ، الذى يقترن اسمه باسم القشبرى المتصوف  
المعروف الذى كان شيخ خراسان وإمامها فى القرن  
الخامس الهجرى . وقد اختصر على خليل المرففى  
رسالة القشبرى المشهورة بالرسالة القشبرى .

يخلط كثيرون من غير أهل التحقيق بين أصحاب  
النسبة الواحدة ، وقد يذهبون فى الخلط إلى حد أنهم  
ينسبون آثار شخص معين إلى مشابهه فى النسب ، فتراهم  
يخلطون - مثلاً - بين الجرجانى صاحب « الوساطة » ،  
والجرجانى عالم البلاغة وصاحب « أسرار البلاغة »  
و « دلائل الإعجاز » . ويخلطون بين ابن عساكر  
المحدث ، وابن عساكر الدمشقى المؤرخ ، ويخلطون  
بين الحصرى القيروانى الشاعر الأديب صاحب « زهر  
الآداب » وبين الحصرى القيروانى المقرئ الأديب  
الشاعر الذى كان قريباً فى المعاصرة من صاحبه ببضع  
عشرات من السنين ، حتى لا تظهر الفروق بينهما  
إلا لأهل التحقيق والنظر الدقيق :

وهناك مئات ومئات من أصحاب النسب المتشابهة  
ليس هذا مجال سردها ، ولكنه مجال الإشارة إليها فى  
معرض الحديث عن « المراففة » أو « المرففين » .

فكثيراً ما يصادفنا اسم « المرففى » فنجد أنفسنا  
محتاجين إلى تحديد أيهم . وهم جميعاً على اختلاف  
عصورهم ينتسبون إلى قرية « مرصفا » من أعمال محافظة  
القليوبية . وكثيراً ما كانت العواصم والمدائن والقرى  
مصدر اشتراك فى النسب يلتقى عليه طائفة من العلماء

وقد ظلت « مرصفا » أو « مرصفى » مصنعا لتخريج العلماء والأدباء إلى غير بعيد من عهدنا . ففي القرن التاسع عشر ظهر فيها الشيوخ المرافضة محمد بن أحمد المرصفى ، وابنه الشيخ أحمد شلبي المرصفى الذى اشتغل بالتدريس فى المدارس الأميرية ، والشيخ أحمد شرف الدين المرصفى الذى كان زميلا للشيخ حسين صاحب « الوسيلة الأدبية » فى التدريس بدار العلوم فى أول إنشائها سنة ١٨٧٢ . ولقد كان شرف الدين هذا يدرس تفسير القرآن الكريم وعلم مصطلح الحديث على حين اضطلع الشيخ حسين المرصفى بتدريس الأدب العربى والنقد على نسق جديد لم يألفه الناس فى ذلك الحين .

على أننا بصادفنا مرصفى آخر نزع إلى تعلم اللغة الفرنسية حينما أتيح له أن يضم إلى البعثة التعليمية بفرنسا ، وهو الشيخ زين المرصفى الذى ظفر بترجمة وجيزة فى كتاب « تراجم أعيان القرن الثالث عشر » الذى صنفه المرحوم أحمد تيمور « باشا » ليدخل به ميدان الترجمة للرجال فى القرن الهجرى الماضى .

أما أقرب المرافضة إلى زماننا هذا فهما اثنان لا يجوز أن يغفلهما تاريخ الأدب المعاصر ، أما أولهما فهو الشيخ « سيد بن على المرصفى » الذى لا يزال بعض الناس يخطون بينه وبين الشيخ حسين بن أحمد المرصفى صاحب « الوسيلة الأدبية » ، وأما ثانيهما فهو الأديب محمد حسن نائل المرصفى الذى كان يعلم العربية فى مدارس الفرير بالقاهرة ، ولم يقنع بعمله فى التدريس فتركه إلى الصحافة المصرية التى دخل ميدانها بإنشاء مجلة « الجديد » التى كانت بعد « البلاغ الأسبوعى » و « السياسة الأسبوعية » محتلى لنشاط المصريين فى عالم الصحافة بعد أن ظن كثيرون أنه وقف على السورين المتمصرين .

ولا نجد معدى من الوقوف هنا وقفة قصيرة عند الشيخ سيد بن على المرصفى ، حتى يتضح ما بينه وبين

الشيخ حسين المرصفى من ملاسبات تدعو إلى اللبس . فالشيخ حسين صاحب الوسيلة لم يدرك القرن العشرين لأنه توفى سنة ١٨٨٩ م ، أى بعد الثورة العربية بسبعة أعوام ، أما الشيخ سيد المرصفى فقد أدرك من القرن العشرين أكثر من ثلاثة عقود ، حيث توفى سنة ١٩٣١ . والشيخ حسين المرصفى معروف بكتابه « الوسيلة الأدبية » و « الكلم الثمان » وإن كان له كتاب ثالث فى إنشاء الرسائل ، أما الشيخ سيد بن على المرصفى فقد اقترن اسمه باسم العالم الإمام « المبرد » حيث شرح كتابه المعروف باسم « الكامل » فى كتاب يقع فى ثمانية أجزاء باسم « رغبة الآمل ، من كتاب الكامل » ، كما اقترن اسمه بحماسة أبى تمام حيث شرحها فى كتاب أسماه « أسرار الحماسة » .

وعلى ما ذكرناه من بعض المرافضة الذين امتازوا بالعلم والأدب فإن الشيخ حسين المرصفى كان بلا شك أكثرهم جهداً ، وأوضحهم أثراً ، وأبعدهم تأثيراً فى حركة النهضة التى جاء بها القرن التاسع عشر . ويخيل إلينا أنه جاء فى وقته المناسب . فالشيخ رفاعة الطهطاوى كان بلا شك رائد حركة الإحياء على عمومها وكان لا بد من أن يجئ معه أو فى أعقابه من يوطئ للتجديد فى نواح مختلفة من الفكر . ولم يطل الزمن بعد رفاعة الطهطاوى حتى ظهر محمود ساعى البارودى فى حركة إحياء الشعر العربى ، وظهر الشيخ حسين المرصفى فى حركة تطوير الدراسة الأدبية . وكان لا بد من هذه الحركة الضرورية فى إبانها سواء أ جاءت على يد الشيخ حسين المرصفى أم على يد غيره . وقد صاحب هذه الحركة حركة أخرى فى تطوير أساليب الكتابة العربية جاءت على يد عبد الله فكرى الذى كان له فى الشعر مشاركة جعلته من الشعراء المقدمين فى ذلك الزمان . ولكن فضله فى إحياء النثر وفى بعث الكتابة الديوانية من جديد كان واضح الأثر . ومن هنا

لا يفوتنا أن نشر إلى جهود هؤلاء الثلاثة في حركة تطوير الشعر والأدب والنقد والكتابة .

وعلى الرغم مما للشيخ حسين المرفصى من مكان في ميدان الأدب والنقد كان حظه من التعريف به في كتب تاريخ الأدب والتراجم أضال من حظ صاحبيه : البارودى وعبدالله فكرى ، فلم نجد له ترجمة مطولة مفصلة ، ولم يعن واحد من رجال عصره بالترجمة له ، إلا المغفور له على مبارك « باشا » حين تحدث عنه في بضعة أسطر وهو يتناول الحديث عن قرية « مرفصى » في الجزء الخامس عشر من الخطط التوفيقية . ويظهر أن هذا الإغفال قد جر إلى إغفال المؤرخين التاليين ، فأغفله جرجى زيدان وهو يترجم لما يقرب من تسعين علماً من أعلام النهضة في كتابه المشهور « تراجم مشاهير الشرق » . ونحن نعرف أن جرجى زيدان كان يحاول إنصاف الناس من زمانهم ، فلو استطاع أن ينصف الشيخ حسين المرفصى بالترجمة له لفعل ، ولكن يبدو أن الحصول على مواد السيرة له كان متعذراً عليه ، فأغفله إغفال غير المتعمد . . وكذلك فعل حسن السندوبى صاحب كتاب « أعيان البيان » الذى ترجم فيه لطائفة من أعلام القرن التاسع عشر ، ولو كان تحت يد السندوبى مادة للترجمة للشيخ حسين المرفصى ما تأخر ، فهو حفى بأهل البيان الذين يجئ المرفصى في مقدمتهم . ولقد كنا نأمل أن يستدرك المرحوم أحمد تيمور « باشا » ما فات جرجى زيدان وحسن السندوبى وهو يترجم لأربعة وعشرين علماً من أعلام البيان والعلم والأدب والشعر في كتابه الموسوم « تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر » الذى طبع بعد وفاته .

وكأن المؤرخين الذين جاءوا بعد على مبارك باشا قد استكثروا على الشيخ حسين المرفصى تلك الأسطر التسعة التى جاءت في « الخطط التوفيقية » ، فرأيناها تنكمش إلى سطرين أو ثلاثة عند الأب لويس شيخو

اليسوعى في كتابه « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » ، وإن كان المؤرخ عبد الرحمن الرافعى قد نقل إلينا الأسطر التى جاءت في « الخطط » في كتابه الذى أرخ به لعصر إسماعيل ولم يزد عليها شيئاً .

وقد كان من الممكن أن تطول ترجمة الشيخ حسين المرفصى في كتاب « الخطط التوفيقية » لعل مبارك كما طالت تراجم أخرى لبعض معاصريه . ولم يكن على مبارك يضمن بالترجمة على أعلام عصره ، بل كثيراً ما كان يطلب منهم أن يمدوه بآثارهم وأخبارهم ليدونها في كتابه وهو في مرحلة تأليفه . ويظهر أن الشيخ حسين المرفصى لم يشأ أن يمد على مبارك بما يلقي أضواء قوية على حياته ، فقد كان فيه بعد عن إظهار النفس ، وكان فيه ميل شديد إلى التواضع وإنكار الذات . ومن هنا لم يترك لنا ترجمة تفى بحاجات المؤرخ .

ولقد كان من حظى أن أكتب للشيخ حسين المرفصى ترجمة مطولة ، وكانت أول ترجمة مفصلة عن الرجل لم يفت الدكتور محمد مندور أن يشير إليها في بحث له عن أدب (١) المرفصى الكبير ، كما لم يفت الباحث الجليل المرحوم الأستاذ محمد عبد الجواد أن يشيد بها ، وأن ينقل منها سطوراً كثيرة في كتابه الذى أصدره عن الشيخ المرفصى بعد ذلك بعنوان « الشيخ الحسين بن أحمد المرفصى » ، والذى صدر عن دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٢ . ومن هنا أسدى الزمان إلى المرفصى بعض الإنصاف الذى كان قد فاته ، فظهر عنه في زماننا دراستان وكتاب قائم بذاته ، بعد أن كان كل حظه من الترجمة له بضعة أسطر في كتاب الخطط التوفيقية لعل مبارك .

ويظهر أن عنصر « التأخير » كان شيئاً ظاهراً في حياة الشيخ حسين المرفصى . فقد تأخرت به الترجمة

(١) مجلة المجلة . العدد التاسع والعشرون - مايو سنة ١٩٥٩

سنة ١٢٨٨ هـ - يوليو سنة ١٨٧١ م . ففي ذلك التاريخ وفي عهد نظارة علي مبارك الثانية للمعارف المصرية نظمت دروس عامة بالمدرج الذي كان يسمى « دار العلوم » بسرأي درب الجمايز - كما يذكر مؤرخ التعليم في مصر أمين سامي - وكان يحضر هذه المحاضرات طلبة المدارس العالية ، وفريق من طلاب الأزهر الراغبين في زيادة التحصيل وتنوع المعرفة ، كما كان يحضرها علي مبارك « باشا » نفسه ومعه فريق من كبار رجال المعارف وموظفي الحكومة تشجيعاً للناس على شهودها .

ورثي في هذه المحاضرات أن تزود المستمع بفيض من المعرفة في مجالات مختلفة من العلم والأدب والفن ، واختير لها من المحاضرين نفر من ذوى القدرة والأصالة في موضوعاتهم ، فكان الشيخ حسين المرصفي لتدريس « العلوم الأدبية » ، وبروكش « باشا » للتاريخ العام ، والمسيو بكييت لعلوم الطبيعة ، وفرانس « باشا » لفن الأبنية ، وفيدال « باشا » لعلم السكك الحديدية ، والشيخ أحمد المرصفي - مواطن الشيخ حسين المرصفي - للتفسير والحديث ، وإسماعيل « باشا » الفلكي ناظر المهندسخانة لعلم الفلك ، والشيخ عبدالرحمن البجراوى للفقهاء الحنفى ، وأحمد ندى « بك » لعلم النبات .

وظل الشيخ حسين المرصفي مواظباً على إلقاء محاضراته ، التي وجد فيها المقبولون عليها والمستمعون لها شيئاً جديداً لم يألوه في المعاهد العالية ، ولم يسمعه الشيوخ في الأزهر ، فقد كان يعرض نصوصاً أدبية وينقدها ويوازن بين بعض النصوص القديمة والحديثة موازنات لم يعرفها ذوق ذلك العصر . . .

ومن حسن الحظ أن هذه المحاضرات كانت النواة لإنشاء مدرسة « دار العلوم » ، ورثي أن تكون هذه الدروس منهجاً دراسياً لمعهد جديد اقترحه علي باشا مبارك في يوليو سنة ١٨٧٢ . ومن ذلك التاريخ ترك

المطولة لحياته إلى ما بعد وفاته بستين عاماً . . . وقد لحقه « التأخير » في طلبه للعلم ، فلم يدخل المكتب إلا بعد أن كبر عن الطفولة . وكان في هذا أشبه بأبيه الذي لم يدخل كتاب القرية إلا بعد سن الثامنة عشرة ، وهى سن ينقطع فيها طلب العلم عند الكثيرين ، ولكن والد المرصفي لم يجعلها نهاية لطلب العلم ، بل جعلها بداية له . وإذا كان الأبناء في كثير من الأحيان يحملون مشابهة قوية من آبائهم ، فأما الشيخ حسين المرصفي كان كثير الشبه بأبيه العالم الأزهرى العزيز النفس المترفع عن الناس المسمى بالشيخ أحمد حسين المرصفي المكنى بأبى الخلاوة ، وهى كنية لم نقف على تعليل لها . فقد كان الشيخ حسين قليل الإمام بالناس والمخالطة لهم - كأبيه تماماً - وكان قليل الإكثار من الأصدقاء إلا ما كان بينه وبين عبدالله فكرى « باشا » . والحق أن سماحة عبدالله فكرى كانت تحمل الناس على أن يخطبوا مودته . . . وكان المرصفي الابن شديد القناعة مثل أبيه الذى كان لا يرى فى وليمة إلا نادراً ، وكثيراً ما كان يدعوه الأمراء إلى منازلهم فلا يجيبهم . . . وكان الابن قوى الحافظة كأبيه ، فقل أن يسمع شيئاً إلا حفظه . ولم يكتف بحفظ المتون التى كان يقبل الناس على حفظها فى ذلك الزمن ، بل زاد عليها المتون التى لم يبال الناس بحفظها ، كمن « جمع الجوامع » للإمام السيوطى فى علم النحو ، ومتن « تلخيص المفتاح » للخطيب القزوينى فى علوم البلاغة .

وما إن أتم الشيخ حسين المرصفي تعليمه فى الأزهر حتى عين فيه مدرساً . وقد أخذت اتجاهاته الأدبية تظهر فى دروسه ، فلم يهتم بعلوم الفقه والأصول والتوحيد والتفسير والحديث والصرف والمنطق والنحو ، بل كان ينزع فى دروسه منزعاً أدبياً ، إلى حد أن بعض المؤرخين ذكر أنه كان يقرأ فى دروسه كتب أعلام البلاغة ودواوين متقدمى الشعراء . وظل الشيخ حسين المرصفي يلقي دروسه فى الأزهر إلى شهر ربيع الآخر

الشيخ حسين المرصفي التدريس بالأزهر ليكون أول أستاذ للأدب العربي والنقد الأدبي في دار العلوم ، بل ليكون أول رائد لها في العصر الحديث .

ومن مزايا الشيخ حسين المرصفي التي جعلت أحكامه في الأدب والنقد صحيحة أنه رجل عرف قدر نفسه وعرف طاقته فلم يتجاوز بها إلى ما وراءها مما ليس في قدرته . فقد كان كثير من شيوخ الأزهر وعلمائه في ذلك الحين يعرفون العروض ويقرضون النظم على أساسه ويسمونه شعراً . . . ولكن الرجل — على الرغم من قدرته على النظم — لم يجرؤ أن يزعم لنفسه شرفاً ليس من أهله . فكان يرى أن الملكة إذا لم توات امرأ فلا خير من معالجة القريض حتى لا ينجى غثاً بارداً ، وكثيراً ما حمل في دروسه — وخاصة بمدرج دار العلوم — على الشعر الغث البارد . ولقد حملته مرة مناسبة خاصة على أن يمدح صديقه الشاعر البارودي شعراً ، ولكنه أحس أن الشعر ليس من استعداده فهد للأبيات بقوله : « وعلى أن ليس من طبعي أن أقول الشعر إما لفوت أوان تحصيل وسائله ، ولم تكن إذ ذاك دواع ترشد إليه ، وإما لأن الاستعداد الذي سلف التنبيه على أن لا بد منه لم يكن في خليقتي — أنطقتي حبه ، يعني حب البارودي — بأبيات أجملت فيها صفته » ثم أخذ بعد هذا يسطر الأبيات . وهي أبيات ذكرها المرصفي في الوسيلة الأدبية ( جزء ٢ ص ٥٠٢ ) ولم نعتز له على أبيات غيرها ، مما يقوى اليقين عندنا بأن الرجل قد عرف طبعه في الأدب والنثر فلم يتجاوزه إلى ما ليس من طبعه . . .

ولقد عرف ولاية الأمور في مصر فضل الشيخ حسين المرصفي ، فرأوا أن يفيدوا منه في المجلس العالي للتعليم . وقد كان لعلي مبارك باشا فضل في اجتلاب الشيخ إلى هذا المجلس والمشاركة في عضويته ، وكان على مبارك رئيساً لهذا المجلس وناظراً للأشغال في ذلك الحين . وقد يقال إن صداقة علي مبارك باشا للشيخ حسين

المرصفي كانت عنصراً فعالاً في هذا الاختيار ، ولكن الحق أن كفاية الشيخ المرصفي وآراءه الجديدة بالنسبة إلى عصره ، واتجاهاته المحددة في الأدب والثقافة كانت أرجح كفة من كل اعتبار ، فقد رثى أن يكون المجلس العالي للتعليم ممثلاً لعناصر مختلفة ، وكان عنصر الشيوخ ممثلاً أحسن تمثيل ، حيث اجتمع في عضوية المجلس أربعة من ألمع الشيوخ وأوسعهم ثقافة في زمانهم ، وهم الشيخ حسونة النواوي مدرس الشريعة في مدرسة الحقوق يومذاك ، والشيخ محمد عبده الذي كان في ذلك العهد رئيس تحرير « الوقائع المصرية » ، وهي اللسان الرسمي للحكومة ، والشيخ زين المرصفي من علماء الأزهر ، والمترجم له الشيخ حسين المرصفي المدرس بدار العلوم .

وكان من الحسنات الأولى لهذا المجلس العالي للتعليم أنه تم في عهده إنشاء أربع مدارس ابتدائية هي مدارس المنصورة ، وقلوب ، والجيزة ، وطوخ ، كما أنشئ في دورته الأولى قلم الترجمة في نظارة المعارف بتاريخ ١١ أكتوبر سنة ١٨٨١ ، وعين الأديب الثائر المفكر أديب إسحاق ناظراً له .

وكان الشيخ حسين المرصفي ممن فقدوا نعمة البصر ونور العين في طفولتهم الباكرة ، فقد أصيب بفقد البصر في الثالثة من عمره كما يذكر الأستاذ محمد عبد الجواد نقلاً عن رواية لابنه الشيخ عبد العزيز المرصفي ، وبهذا زال الشك حول كونه ولد أكمه . وهي شبهة كنت قد أثرتها في ترجمتي للشيخ واختلف فيها المؤرخون ، إلى أن جلا الأستاذ عبد الجواد غمامها ، وأزاح ظلامها .

وقد دخل الشيخ المرصفي المدرسة التي أنشئت لتعليم من فقدوا البصر طريقة الكتابة والقراءة ، وتعلم طريقة Braille قبل أن يحاضر في دار العلوم بعامين . ثم وجد الفرصة مواتية ليتعلم اللغة الفرنسية على الطريقة نفسها ، فأتقنها كتابة وقراءة وكلاماً .

نظرات صادقة وآراء صائبة ، في الترجمة اللفظية حين تجئ ركيكة يمجها السمع ، وفي ترجمة المضمون حين تظهر للمعنى حسناً وقدرأ . ففي كتابه « دليل المسترشد في فن الإنشاء » يأتي بنص فرنسي من نصوص حكايات لافونتين الشعرية يشتمل على محاوراة بين فقير عالم وغني جاهل في تفضيل العلم أو الغنى ، ثم يورد ترجمته اللفظية فتجئ ركيكة منحطة ، وبعدها يأتي بترجمتها على طريقة ترجمة المضمون ، فتأتي عالية العبارة ، جيدة النمط .

### مؤلفات المرصفي

اشتهر الشيخ حسين المرصفي بكتابه « الوسيلة الأدبية » ، وهو مجموع المحاضرات التي ألقاها على طلبة دار العلوم في أول إنشائها ، وتعد الوسيلة ، كما سنذكر بعد ، أول كتاب في تدريس الأدب والنقد على طريقة جديدة في القرن التاسع عشر ، مهدت بعد ذلك لما استحدث من طرائق في القرن العشرين . وإذا كان المرصفي مجدداً في « الوسيلة الأدبية » على قدر ما سمح به عصره ، فقد جدد في دراسة التربية الوطنية بكتابه الآخر : « الكلم الثمان » ، ويقصد بها : الأمة ، والوطن ، والحكومة ، والعدل ، والظلم ، والسياسة ، والحرية ، والتربية . ويظهر التجديد والابتكار حتى في عنوان هذا الكتاب ، بل تجاوزه إلى المقدمة ، التي لم يستهلها الشيخ بعبارات التحميد والفواتح المعروفة في الكتب القديمة ، بل بدأها بعد البسملة بالبيتين الآتين :  
أرجو قبول هدية لقبها الكلم الثمان  
أهديتها لأولى النهى فتيان أبناء الزمان  
وفي « الكلم الثمان » تظهر ملامح كثيرة من معرفة الشيخ حسين المرصفي باللغة الفرنسية ، ففيها عبارات واصطلاحات وتعريفات معربة عن الفرنسية . كما جرى فيها قلم الشيخ بأسلوب مترسل في عصر كان الزخرف فيه مستعملاً . ومن نماذج هذا الكتاب قوله مشيراً إلى

ومسألة تعلم المرصفي للغة الفرنسية ليست محل شك ، فقد رواها الثقات من المؤرخين وعلى رأسهم على مبارك باشا الذي يذكر أنه تعلمها في أقرب زمن ، وأنه لم يصادف عقبة في تعلمها ، ويدل كلام المرصفي نفسه على هذه السهولة التي تصادف متعلم اللغات الأجنبية ، فيقول في كتابه « دليل المسترشد في فن الإنشاء » في معرض الحديث عن تعلم اللغات الأجنبية : « أن يستأنفوا - يعني الصبيان المبعوثين - إتقان معرفة لغة أسلافهم . ثم يتعلمون مبادئ اللغات وأوليات قواعدها - وذلك أمر سهل ليس فيه عسر ، فأن عناية القوم - يعني الأجانب - بضبط لغاتهم ، كعنايتهم بضبط سواها قد يسرت وسهلت تحصيلها . فإذا مهر المتعلم في لغة أسلافه ، المعروفة المادة ، المجهولة الصورة ، وهو لا يحتاج لزمن طويل ، متى كان المتعلم حاذقاً ونصح في التعليم ، طلب الانتهاء في معرفة اللغات ، واستقصى تحصيلها ، وهو أمر يسير أيضاً » وهكذا نرى أن الشيخ حسين المرصفي كان يرى أن تعلم اللغات شيء يسير سهل التحصيل . ولعله في هذا كان يعبر عن تجربته الخاصة في تعلم الفرنسية .

ولا أدري لماذا شك المرحوم الدكتور محمد مندور في تعلم المرصفي للغة الفرنسية وإتقانه إياها ؟ لقد علل الدكتور مندور لوجهة نظره بأنه « لم يحس في كتاب « الوسيلة الأدبية » الضخم بأى أثر للثقافة الفرنسية وآدابها عند مؤلفها<sup>(١)</sup> . . . » والحق أن المرصفي تعلم الفرنسية وأتقنها قراءة وكلاماً ، فهي حقيقة لا خلاف فيها ، وخاصة أن مترجم سيرته وصديقه على مبارك « باشا » قد ذكرها . ولكننا لا يجوز أن نغفل أن المرصفي قد تعلم الفرنسية على كبرة من السن ، فلم يستطع أن يقرأ في أدبها ما يمكن أن يبين في آثاره . على أنه كان له في بعض كتبه الأخرى غير « الوسيلة »

(١) مجلة المجلة - العدد التاسع والعشرون - ص ٣٧

وقد أشار المرحوم أمين سامى « باشا » فى خطاب ألقاه بدار العلوم سنة ١٨٩٥ إلى كتاب ثالث للشيخ المرصفى وقال عنه إنه باق بدون طبع ، وهو كتاب : « دليل المسترشد فى فن الإنشاء » ويقع هذا المخطوط فى ثلاثة مجلدات تقرب صفحاتها من الألف . فالأول فى ٤٠٩ صفحات ، والثانى فى ٣٥٧ صفحة ، والثالث فى ٢٣٢ صفحة .

ولقد فات المرحوم الأستاذ محمد عبد الجواد أن يشير إلى كتاب رابع للشيخ حسين المرصفى ، وهو كتاب « زهرة الرسائل » الذى طبع فى مصر على الحجر فى تاريخ غير معلوم ، وقد ذكره يوسف أليان سركيس فى معجم المطبوعات العربية ، ولم يتح لنا الاطلاع عليه .

### الوسيلة الأدبية

قلنا قبل هذا إن الوسيلة الأدبية هى الكتاب الذى اشتهر به الشيخ حسين المرصفى . وقبل أن نقول كلمتنا فيه لا بأس أن نشير إلى ما نعت به أديب من أدباء عصر المرصفى هو الشيخ حسن أبو زيد سلامة ، وأغلب الظن أنه كان كاتب هذه المحاضرات إملاء عن الشيخ ، وأنه كان المشرف على طبعها . ويقول الشيخ حسن أبو زيد هذا فى وصف الوسيلة : « قد تم بإسعاف الألفاظ الجليلة ، طبع مجموع لفنون الأدب وسيلة ، حوى من كل علم أحسنه ، واشتمل على نفائس درر مستحسنة . بنات فكر اخترعتها فكرة سليمة ، وعرائس خدر أبرزتها محاسن كريمة ، فهو وسيلة الأدب ، ومبلغ لتمام الأرب . . . » والحق أن هذا النعت من النعوت العامة التى تنطبق على كل كتاب فى موضوعه ، فهو لم يحدد لنا طريقة الكتاب ولا منهجه ، ولم يقل لنا مزاياه وخصائصه .

منهج الدراسة : « فأذا انتهى التعلم العام ، وتحصلت الناشئة على المعارف العامة ، التى لا تخص طائفة دون طائفة ، شرع بهم رؤسائهم وأهل النظر فى تدبيرهم فى المعارف الخاصة وأعمالها ، كل شخص يلحق بطائفته التى أدى اختياره والتفرس فيه ، وامتحان ميله ورغبته إلى معرفة أهليته لها ، واستحقاق أن يدرج فى عدادها ، ليقوم كل على أتم وجه بما يسند إليه ، ويربى له ، ويرصد لتحصيل ثمرته ، واجتلاب منافعه . . . » .

ومن غرائب المفارقات أن الشيخ المرصفى كان يترسل فى نثره فى الوقت الذى كان يجرى فيه معاصره عبدالله فكرى باشا على طريقة السجع والمحسنات . فسبق بذلك المرصفى إلى أسلوب الترسل الذى استعمله بعد ذلك بقليل الشيخ محمد عبده الذى يعد صاحب فضل فى تخلص الكتابة العربية فى أخريات القرن التاسع عشر من السجع وبعض المحسنات .

ويبدو الشيخ المرصفى فى كتابه « الكلم الثمان » مصلحاً اجتماعياً ، وأما كانت حالة مصر قبيل صدور هذه الرسالة فى سنة ١٨٨١ تدعو إلى بعض الأصوات المصلحة الجريئة الداعية إلى الحق . فلم تكن الثورة العربية قد قامت بعد ، ولكن الأفكار فى الأمة كانت تهباً لها ، فرى الشيخ فى كتابه هذا بحث على التعاون ، ويدعو إلى الدفاع عن الوطن ، ويحث على نشر التربية الصحيحة وينقد بعض الصور الاجتماعية الواهية كمجالس الذكر والذاكرين ، ويعرض بخطباء المنابر فى عصره ويرى ضرورة استعدادهم لأداء وظيفتهم ، واختيار الموضوعات التى يتكلمون فيها . ولقد كان المرصفى ممن أحسوا الفروق بين الطبقات ، فلاحظ طبقة الملاك وغناهم ، كما لاحظ سوء حالة من عداهم من المسخرين فى خدمتهم ، وكان شديد الإحساس ( بما بقى فى نفوس العمد من ظلم الأهالى ) (١) .

(١) صفحة ٢٦ من كتاب الكلم الثمان

وقد أوجز لنا مؤرخ معاصر<sup>(١)</sup> للأدب العربي نعت «الوسيلة الأدبية» في أسطر قليلة بأن المرصفي فيها «عرض علوم العربية عرضاً جديداً بأسلوب جديد ، وبخاصة علوم البلاغة ، مبيناً منزلة كل منها في نقد الكلام . ولم يكتف بهذا ، بل حاول التطبيق النقدي ، وصحح كثيراً مما أخطأ فيه القدماء ، وكان له ذوق مرهف لمعرفة مواطن الحسن في الكلام» .

على أن «الوسيلة الأدبية للعلوم العربية» قد ظفرت بدراستين جادتين ، أولاهما للأستاذ محمد عبد الجواد في كتابه «الشيخ الحسين بن أحمد المرصفي» ، وثانيتهما للدكتور محمد مندور في مقال له بمجلة المحلة . وقد خلص الدكتور محمد مندور إلى نتيجة لا بأس من إيرادها هنا ، وهي (أننا لا نستطيع أن نغفل عند حديثنا عن النقد والنقاد في نهضتنا الأدبية المعاصرة مثل الرائد الشيخ حسين المرصفي ، الذي بعث النقد التقليدي ، وساعد في حركة البعث الأدبي كله وطوائفه مساعدة فعالة ، بل اهتدى بفطرته السليمة إلى بعض ما تردى فيه بعض نقاد العرب القدماء مثل قدامة بن جعفر عندما عرف الشعر في كتابه «نقد الشر» بقوله : «إنه الكلام الموزون المقفى» وجاراه في هذا التعريف جميع من خلفه ، على حين نرى الشيخ حسين المرصفي بفطرته الأدبية السليمة يقول : «وقول العروضيين في حد الشعر إنه الكلام الموزون المقفى ليس بحد لهذا الشعر باعتبار ما فيه من الإعراب والبلاغة والوزن والقوالب الخاصة . فلا جرم أن حدهم ذلك لا يصلح له عندنا ، فلا بد من تعريف يعطينا حقيقة من هذه الحيشة ، فنقول : إن الشعر هو الكلام البليغ ، المبني على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجارى على أساليب

(١) الأستاذ عمر الدسوقي في كتابه «في الأدب الحديث»

العرب المخصوصة به» ويكفيه فخراً في هذا التعريف أنه فطن إلى خاصية أساسية تميز الأدب عامة ، والشعر خاصة عن غيره من الكتابات ، وهي التصوير البياني ، بدلا من التعريف الجاف .

والحق أن هذا التعريف للشعر الذي أعجب به المرحوم الدكتور محمد مندور وظنه للشيخ حسين المرصفي ، وأسس عليه ما أسس من أحكام وتقدير وإعجاب بالشيخ المرصفي هو كله حرفاً حرفاً لابن خلدون ، وقد نقله المرصفي في كتابه «الوسيلة الأدبية» منسوباً إلى ابن خلدون ، ولكن الدكتور مندور قد توهم أنه للشيخ المرصفي بسبب تداخل الكلام بعضه في بعض في طبعة الوسيلة الأدبية !! وهذا الكلام لابن خلدون قد جاء في فصل من مقدمة ابن خلدون عنوانه «فصل في صناعة الشعر ووجه تعلمه» . وعجيب جداً أن ينزلق الدكتور مندور هذا المنزلق ، ولا يتفطن إلى كلام ابن خلدون عن الشعر — وهو معروف مشهور — فينسبه إلى الشيخ المرصفي ويرتب عليه ما يشاء من أحكام !!

على أن هذا التعريف لخلدون في الشعر الذي حسبه الدكتور مندور من مبتكرات المرصفي في «الوسيلة الأدبية» يذكرنا بتعريف آخر سابق عليه لابن حازم القرطاجني من أدباء القرن السابع الهجري . وهو ممن ترجم لهم المقرئ في «نفح الطيب» و «أزهار الرياض» وترجم لهم الإمام السيوطي في «بغية الوعاة» . والحق أن تعريف ابن حازم القرطاجني للشعر يفوق تعريف ابن خلدون ، بما أودعه من قوة التخييل في الشعر ، وعنصر الإثارة والأنفعال وتحريك النفس ، وحسن التصوير البياني . ولا بأس هنا من إيراد تعريف ابن حازم للشعر حتى يتضح وجه المقابلة بين التعريفين ، وحتى يعرف موقف الشيخ المرصفي صاحب الوسيلة منهما . قال ابن حازم : «الشعر كلام موزون مقفى ، من شأنه أن يحجب إلى النفس ما قصد تحييبه إليها ، ويكره إليها



ما قصد تكريمه . لتحمل بذلك على طلبه ، أو الهرب منه ، بما يتضمن من حسن تخيل له ، ومحاكاة مستقلة بنفسها ، أو متصورة بحسن هيئة تأليف الكلام ، أو قوة صدقه ، أو قوة شهرته ، أو بمجموع ذلك . وكل ذلك يتأكد بما يقترن به من إغراب . فأن الاستغراب والتعجب حركة للنفس ، إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوى انفعالها وتأثرها .

فابن حازم القرطاجنى قد سبق ابن خلدون إلى التفتن للخواص التي تميز الشعر . ولعله من أوائل الأدباء العرب الذين تفتنوا إلى ما في الشعر من عنصر الانفعال والتأثير وقوة التخييل ، بالإضافة إلى ما فيه من حسن التصوير البياني .

ولقد اضطر الشيخ المرصفي - وهو في معرض الكلام عن الشعر - إلى تعريفه ، ولكنه لم يأت لنا بتعريف من عنده كما وهم المرحوم الدكتور محمد مندور ، بل لجأ إلى الفصل الذي عقده ابن خلدون في «المقدمة» عن صناعة الشعر ووجه تعلمه، فنقله في فصل خاص . وكان المرصفي أميناً - كشأنه في أكثر ما نقله - فأشار في آخر صفحة ٤٦٣ من الجزء الثاني من «الوسيلة الأدبية» إلى هذا النقل عن مقدمة ابن خلدون . ولا أدري كيف خفي هذا على الدكتور مندور فظن الفصل الخاص بصناعة الشعر هو من كلام المرصفي ومن ابتكاراته ، وأسس على هذا ما أراد من أحكام كما ذكرنا قبلاً ، كما رتب عليه أن للشيخ المرصفي رأياً في «وحدة البيت» لا وحدة القصيدة ، مع أن هذا الرأي رأى ابن خلدون بلحمه ودمه وألفاظه وحروفه حرفاً حرفاً ليس للمرصفي فيه كلمة واحدة ، وما هو إلا ناقل أمين لم يغفل أن ينسب القول إلى صاحبه ... ؟

ولقد كان الدكتور محمد مندور واهماً حين تحدث عن الشيخ المرصفي قائلاً : ( فالشيخ حسين نفسه لا يزال يقرر أن البيت مثلاً وحدة شعرية مستقلة

بذاتها ، حيث يقول في مسهل حديثه عن الشعر : إنه كلام مفصل قطعاً قطعاً متساوية في الوزن ، متحدة في الحرف الأخير من كل قطعة ، وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتاً ، ويسمى الحرف الأخير الذي تتفق فيه رويًا وقافية . وينفرد كل بيت بإفادته في تركيبه ، حتى كأنه كلام وحده ، مستقل عما قبله وما بعده ، وإذا أفرد كان تاماً في بابه . . . ) فليس هذا كلام المرصفي وإنما هو ناقله بالحرف الواحد عن ابن خلدون وناسبه إليه . ومن هنا كان كلام الدكتور مندور عن «وحدة البيت» عند المرصفي أحق أن يكون عن ابن خلدون . . .

وهذا التعريف الخلدوني للشعر - المنسوب وهماً إلى الشيخ المرصفي لجحد أنه ذكره في الوسيلة - يظهر بوضوح قضية «وحدة البيت» في القصيدة العربية . ويفصح أيما أفصح عن مناهج القدامى من شعراء العرب من حيث الاهتمام بالبيت من القصيدة كأنه وحدة مستقلة قائمة بذاتها . وهي المناهج التي سار عليها النقاد من قديم والتي يحاول الشعراء اليوم أن يتحرروا منها ، بل نجح كثير منهم في هذه المحاولة الجديدة ، يجعل القصيدة كلها وحدة موضوعية ، فأن هذه الخطرات الخاطفة المتقطعة في كل بيت تخرج القصيدة العربية عن الوحدة الموضوعية المنشودة لها .

ويبدو لنا أن قبول الشيخ حسين المرصفي لرأي ابن خلدون والقدماء في «وحدة البيت» دون تعليق أو محاولة للتجديد هو نوع من التمسك بالقديم مع مراعاة اعتبارات الزمن والملابسات ، فأن الزمن في عصره كان غير ملائم للدعوة إلى وحدة القصيدة كاملة . فقد كان الشعر في أيامه - وخاصة على يد محمود سامي البارودي - يمضي في حركة إحياء للقديم بمحاكاة النماذج العربية القديمة الرائعة . فكان من غير المعقول أن تظفر الحركة من «إحياء» إلى «تجديد» لم يكن الذوق العام مستعداً لاستقباله ، ولا مهيئاً له . . .

على السنة البلاغين وأصحاب البيان . ولكنه — كعادته في عدم قبول الآراء قضايا مسلماً بها مهما كان مصدرها — لم يكن راضياً كل الرضى عن تعريف ابن خلدون للذوق ، فعقب عليه مستدرجاً بكلام قال فيه : « وأما قوله في تفسير الذوق فأبين منه ما سألقيه عليك ، وذلك أن بين الأشياء تناسباً ، بحيث متى استوفت عند اجتماعها حظها منه ، قامت منها صورة بتفاوت الناس في إدراك حسنها طبعاً وتعلماً . ففهم من لا يدرك ذلك ولا يلتفت إليه . وليس مدركه سواء فيه . ففهم من يقنع بأدراك ظواهر الأشياء ، ومنهم من ينتهى إدراكه إلى اعتبار دقائقها وخوافيها . وتعتبر ذلك بما تشاهده من شدة سرور بعض الناس عند رؤيته للأشياء المناسبة التي يلائم بعضها بعضاً ، وشدة نفرتة وانقباضه عند رؤية خلافها ، لا يختص ذلك بشيء دون شيء . ففراه يتأمل الأبنية وأوضاعها ، وما اشتملت عليه من مكملات الانتفاع بها ، فإذا أدرك فيها التناسب اللائق بها ، رأيت قد انشرح صدره ، وتجدد سروره ، وأخذ في نعتها والثناء على صناعتها . وذلك مثل تعتبر به غيره ، وتتأمل تفاوت الناس في ذلك الإدراك . فالإدراك الذي يتعلق بتناسب الأشياء ويوجب الاستحسان والاستقباح هو المسمى « بالذوق » . وهو طبعي ينمو ويتربى بالنظر في الأشياء والأعمال ، من جهة موافقتها للغاية المقصودة منها » .

ويكفى المرصفي فضلاً في « الوسيلة الأدبية » أنه نبه الناس في عصره إلى كتب لم يكونوا يقرءونها ، فجاءت نقوله عن هذه الكتب توكيداً لبيان حاجة الأدباء إلى القراءة ، ونهت الناس إلى قيمة تلك الكتب التي كاد ينقطع العهد ما بينهم وبينها . لقد نقل بعض الأراجيز من كتاب « الصادح والباغم » ونقل كثيراً من أبواب ديوان الحماسة لأبي تمام . ولم يكتف بالنقل ، بل أوصى بالاطلاع عليه وعلى غيره . وقرأ كتاب « الصناعتين » لأبي هلال العسكري ، فأعجب به ،

ومن هذا النقل لكلام ابن خلدون في وحدة البيت يتضح لنا أن الشيخ حسين المرصفي لم يكن في ذهنه أن يكون « مجدداً » في أصول النقد الأدبي ، وإنما كان « محيياً » لها . وما كان له أن يكون غير ذلك . فأن حركة « التجديد » لم تكن في القرن التاسع عشر قد تهيأت لها الظروف الملائمة . ولم يشذ الشعر في هذا عن النثر ولا عن الدراسات الأدبية والنقدية . فأن الشعر — مثلاً — بعد أن نفى عنه محمود سامي البارودي أثواب البلى ، وأعاد إليه رواء القديم وقوته ، لم ينزع إلى التجديد إلا في القرن العشرين ، حين نهض رجال من أمثال العقاد ، والمازني ، وعبد الرحمن شكري ، وخليل مطران ، وميخائيل نعيمة بدعواتهم المختلفة إلى التجديد في الشعر ، وإلى نقد النماذج المعاصرة لهم المقلدة التي كانت تعد في ذلك العهد قمة لا تتناول .

وكذلك النثر لم يطفر إلى الترسل والانطلاق والتحرر من قيود المحسنات دفعة واحدة ، بل كان لا بد أولاً من حركة « إحياء » لروائع النثر العربي ، على يد عبد الله فكري « باشا » الذي أحيا الكتابة — وخاصة الديوانية — وأعاد لها ديباجتها ورونقها ونصاعتها ، ولكن في إطار السجع وبعض الزخارف ، التي لم يأت التخلص منها إلا في مرحلة تالية ، على يد رجال من أمثال الشيخ محمد عبده ، وأديب إسحاق في أخريات القرن التاسع عشر ، فلما جاء القرن العشرون كان النثر مستعداً للترسل المطلق ، والانعقاد جملة من زخارف القول .

على أن فضل الشيخ حسين المرصفي في النقد الأدبي الذي « أحيا » حركته في محاضراته التي جمعت في كتابه « الوسيلة الأدبية » يظهر جلياً في ذوقه السليم في الموازنات التي كان يعقدها في هذا الكتاب الممتع ، بين الأدباء والشعراء . وقبل أن يكون المرصفي ذيقاً بطبعه وفطرته ، كان ذيقاً بعلمه واطلاعاته وقراءاته الواسعة . فقد أورد في الجزء الثاني من الوسيلة كلاماً جيداً لابن خلدون في تفسير ثامة « الذوق » التي تدور

ورأى مؤلفه قد رتبته على عشرة أبواب ، فأثر أن يلخص الكتاب كله تلخيصاً دقيقاً ، وأن يودعه « الوسيلة » ، مصرحاً في ذلك بقوله : « وهأنذا ملخص لك منه ما تقع الكفاية به في ذلك الغرض » . وقد استغرق تلخيص كتاب « الصناعتين » سبعين صفحة من كتاب « الوسيلة الأدبية » . وأعجب المرصفي بكلام مؤرخنا ابن خلدون في صناعة الشعر وتعلمه ، وفي الذوق ، فنقله كله ، مصرحاً بهذا النقل كعادته في أكثر مما كان ينقله ، مما لا يدع مجالاً للخلط بين كلامه وكلام غيره . ولما بلغ موضوع الكتابة والتمكن في معرفتها نقل عن الفلقشندی صاحب « صبح الأعشى » كلامه في الأصول التي يعتمد عليها الكاتب في مكاتباته ، وبلغ المنقول هنا أربع عشرة صفحة .

ولا بد هنا من وقفة قصيرة عند الكتب التي نقل عنها الشيخ حسن المرصفي في كتابه « الوسيلة الأدبية » حتى تتضح لنا ميول الرجل واتجاهاته في القراءة ، وذوقه في مطالعته التي جعل منها مادة وافرة لكتابه ، وحتى نستطيع أن نحكم على المصادر والمراجع التي كونت ثقافته في الأدب والنقد . لقد نقل الرجل عن كتاب « المثل السائر » لابن الأثير ، وهو كتاب جيد في البلاغة وصفه ابن خلكان بقوله : « جمع فيه فأوعى ، ولم يترك شيئاً يتعلق بفن الكتابة إلا ذكره » ، ونقل عن « مقدمة ابن خلدون » في غير موضع وخاصة في الشعر والكتابة والذوق ، ونقل عن « يتيمة الدهر » للثعالبي ، ونقل عن « صبح الأعشى » للفلقشندی ، وأفاد كثيراً من « الكتاب » لسيدويه في النحو ونقل عنه في غير موضع ، كما نقل عن « المفصل » للزمخشري ، وعن « عروس الأفراح » لابن السبكي بهاء الدين بن أحمد ، وهو في شرح « تلخيص المفتاح » في علوم البلاغة ، ونقل عن « حسن التوسل » في صناعة الترسل » لشهاب الدين الحلبي من أدباء القرن الثامن الهجري الذين اشتهروا بالبلاغة وحسن الإنشاء .

أما إفادته من كتاب « الصناعتين » لأبي هلال العسكري فتبدو في السبعين صفحة التي تلخصها منه . أما دواوين الشعر العربي وكتب الأمثال والمقامات والرسائل فقد نقل المرصفي من نماذجها الجياد ما دل على حسن اختياره وسلامة ذوقه وإصابة استشهاده .

ولم يقف المرصفي بالنقل عند القدماء ، فقد جاء إلى المحدثين من معاصريه يروى لهم ، وينقل عن بعض كتبهم . فروى لمحمود سامي البارودي ، ولعبدالله فكري ، ونقل عن طريق التلخيص أربعة أبواب في فنون الكتابة من كتاب « المطالع النصيرية » للشيخ أبي الوفاء نصر الهوريني الذي كان معاصراً له ، والذي تولى رئاسة التصحيح في مطبعة بولاق الأميرية بعد عودته من إمامة البعثة العلمية في باريس .

لقد كان المرصفي أميناً في النقل عن كتب غيره ممن سبقوه أو عاصروه ، فهو يشير إلى المنقول عنه في أكثر حالاته ، ولكنه في حالات قليلة ، بل نادرة ، لا يصرح باسم من نقل عنه أو أخذ منه ، كما فعل في حديثه عن نقد الشعر وسقوط درجته — كيفما كان — عن درجة الكتاب العزيز من البلاغة . فنراه هنا يقول : « وهأنذا مورد لك من ذلك أنموذجاً » ، قال أحد المصنفين في ذلك الغرض .

وقد لا يكتفى المرصفي بذكر اسم المؤلف الذي ينقل عنه ، بل يضيف إلى ذلك نعتة بما يراه — في تقديره — أهلاً له من النعوت ، وقد يضيف إلى نعت المؤلف المنقول عنه نعت كتابه والحكم عليه حكماً صحيحاً في إيجاز ودلالة كافية . وتدل هذه النعوت في مجموعها على مبلغ إعجاب الشيخ المرصفي بمن ينقل عنهم وبمصنفاتهم . اسمعه وهو يقول في الجزء الأول من الوسيلة صفحة ١٠٩ عن كتاب « الخلاصة » في النحو المشهور بألفية ابن مالك : « وقد آن أن نغضي معك في تقرير المسائل النحوية على ترتيب « الخلاصة » لحسنه ، وعموم استعمالها ، والانتفاع بها شرقاً وغرباً » .

منذ نظمها ابن مالك - رحمه الله تعالى - فلقد كان صادق النية ، صحيح العزم ، شديد الاجتهاد في تأييد الإسلام ونفع المسلمين ، حتى إن الناس بعده أكثروا من نظم ألفيات مختلفة وزادوا فيها على « الخلاصة » ولم يلتفت إليها . . . . » . واسمعه وهو ينقل في الجزء الأول صفحة ١٠٧ نصاً عن ابن خلدون فيقول عنه : « قال أحد أكابر عقلاء الأمة ، وقدوة سائر الأمم ، في إخراج التاريخ عن كونه قصصاً وأحاديث يتعجب منها ، أو يضحك عليها ، إلى جعله أكبر مرب للعقول ، وأجل مظهر للإنسانية : عبد الرحمن بن خلدون - رحمة الله تبارك وتعالى عليه . . . » . فانظر أى وصف يصف به المرصفي مؤرخنا الكبير ابن خلدون ويصف مقدمته :

ويظهر أن إعجاب الشيخ حسين المرصفي بابن خلدون كان لا يقف عند حد ، فقد نقل عنه مراراً في الجزء الأول من الوسيلة وفي الجزء الثاني منها . وكان لا يكفى بنقل كلامه ، بل كان يعقب عليه ويعاق ، ويشرح ويفسر ، كأنما يجد لذة كبرى في مناقشة ذلك العقل العربي الكبير . . .

ونحيل إلينا أن هدف المرصفي من « الوسيلة الأدبية » كان في أن يجعل منها موسوعة أدبية واسعة الأطراف . ويقول على مبارك باشا إن المرصفي جمع فيها نحو اثني عشر فناً . ولكننا من طول تتبعنا لها وتقيرنا فيها وجدناها تشتمل على فنون كثيرة ، ففيها علوم النحو ، والصرف ، والبلاغة ، والعروض ، والقوافي ، والكتابة ، والإنشاء ، وقرض الشعر ، والموازنات الأدبية ، والطرائف ، والأمثال ، والمقامات ، والنقد ، واللغة ، وفن المقولات العشر ، والتاريخ ، وتواريخ نشأة الفنون ، وتاريخ التربية ، والكتاب ، وتدوين العلوم ، ونشأة اللغة العامية وعلاجها ، ومخارج الحروف وغير ذلك من المسائل التي توسع دائرة معارف القارئ :

وعلى الرغم من استغراق المرصفي في الكتب القديمة وطول صحبته لها ، وأخذها عنها ، نراه ينزع إلى ترك تقسياتها وهجر تبويبها القديم المألوف . فلا يستعمل في التقسيم والتبويب ألفاظ : المقدمة ، والباب ، والفصل ، والكتاب ، ولكنه يعدل عنها عدولاً تاماً ، ويستعمل بدلاً منها ألفاظ : « الصدر » ، و « الجهة » وما إليها . ولقد ترك المرصفي نفسه على سجيته في « الوسيلة » ، فكان كثير الاستطراد ، يخرج من موضوع إلى موضوع ما دام يرى في ذلك الخروج أو الاستطراد نوعاً من الاهتمامات الأدبية التي كان يراها أحق بالذكر ولو في غير موضعها . فقد يكون مثلاً في موضع الحديث عن قاعدة نحوية وشرحها ، ولكنه يجد المجال يدعو إلى الاستطراد ، فيخرج من موضوع القاعدة إلى موضوع أدبي ساقط إليه المناسبة . وخير مثال يحضرنا على هذا ما صنعه في الجزء الأول من الوسيلة ص ١٣٠ حيث كان يشرح العبارة : « كل امرئ مجزى بعمله . إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر » ويتعرض للحديث عن حذف كان واسمها في مثل هذه العبارة . ولكنه انتقل من القاعدة النحوية إلى إيراد مقامة من مقامات الحريري عنوانها « المقامة النحوية » ، ومهد لهذا الانتقال أو الاستطراد بقوله : « وعلى هذه المسألة بنى أبو محمد الحريري مقامته الرابعة والعشرين ، الموسومة بالمقامة النحوية ، ورأيت إيرادها في هذا الموضع ، ملتصقاً من الطلبة أن ينعموا أنظارهم في كيفية سياقها ، وتحيل البلغاء على إيراد المسائل العلمية في الأساليب الأدبية ، عسى أن يلمحوا الغاية التي لها منعى من يكدها نفسه ، ويتحامل على قواه ، ويصرف من نفيس عمره في تعلم الفنون المتعلقة باللغة العربية . . . » ولم يكتف المرصفي بهذا الاستطراد المفاجئ في نقل مقامة الحريري ولكن غلب عليه طبع الأديب وواجب المعلم ، فأخذ يفسر ما أودع هذه المقامة من النكت العربية والأحاجي النحوية . ولم يكتف بهذا أيضاً فأورد قصة ندماني جذيمة

على طولها . وقد استغرق هذا الاستطراد نحو عشر من صفحات « الوسيلة » لم يجدها المرصفي كثيرة في هذا المقام . . .

ولم يضمن الشيخ المرصفي في كتابه بالاستشهادات الكثيرة ما بين آيات قرآنية ، وحديث نبوي ، وأشعار ، وطرائف ، وأمثال ، وحكايات ونوادر . وقد كان قصده في هذا المنحى ظاهراً ، حتى يمد القارئ والطالب بأكبر قدر مستطاع من الشواهد التي تعين على تربية الملكة ، وتحسين الذوق . وقد كان هو حافظاً لكثير من جيد الشعر والنثر ، ودعا إلى الاكثار من الحفظ — وخاصة في الشعر — حين يقول في الجزء الثاني من « الوسيلة » نقلاً عن ابن خلدون : « اعلم أن لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطاً أولها الحفظ من جنسه ، أى من جنس شعر العرب ، حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها ، ويتخير المحفوظ من الحر النقي الكثير الأساليب . وهذا المحفوظ المختار أقل ما يكفي فيه شعر شاعر من الفحول الإسلاميين مثل ابن أبي ربيعة ، وكثير ، وذى الرمة ، وجربير ، وأبي نواس ، وحبيب ، والبحترى ، والرضي ، وأبي فراس ، وأكثره شعر كتاب الأغاني لأنه جمع شعر أهل الطبقة الإسلامية كله والمختار من شعر الجاهلية . ومن كان خالياً من المحفوظ فنظمه قاصر رديء ، ولا يعطيه الرونق والحلاوة إلا كثرة المحفوظ . فن قل حفظه أو عدم ، لم يكن له شعر ، وإنما هو نظم ساقط ، واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ . ثم بعد الامتلاء من الحفظ وشحن القريحة للنسج على المنوال يقبل على النظم ، وبالأكثر منه تستحكم ملكته وترسخ . وربما يقال إن من شرطه نسيان ذلك المحفوظ ، لتمحي رسومه الحرفية الظاهرة ، إذ هي صادرة عن استعمالها بعينها ، فإذا نسها وقد تكيفت النفس بها انتقش الأسلوب فيها . كأنه منوال يأخذ بالنسج عليه بأمثاله من كلمات أخرى ضرورة » . وقد وهم المرحوم الدكتور محمد مندور

مرة أخرى فظن أن هذا الكلام للمرصفي لا لابن خلدون ، ورتب عليه أن هذه العبارات المرصفية هي جماع الأسس السليمة للبعث الشعري المعاصر ، بل لكل خلق شعري سليم . . . وأسس على هذا الوهم موازنة بين الناقد الفرنسي « ديهامل » وبين المرصفي ! وكان حق الموازنة أن تكون بين ديهامل وبين ابن خلدون . . . !

ويلاحظ أن المرصفي في إيراده للقصائد والأشعار الجيدة لفحول شعراء العرب قد راعى التسلسل الزمني ، وتدرج العصور التاريخية من الجاهلية إلى وقته . فقسم الشعراء إلى طبقات ثلاث : الطبقة الأولى للعرب جاهليين وإسلاميين من المهلهل إلى بشار بن برد ، والثانية للمحدثين الذين كانوا يحرصون على موافقة العرب ويجهدون في سلوك طرائقهم من أبي نواس إلى من قبل عبد الرحيم المعروف بالقاضي الفاضل ، والثالثة بالشعراء الذين غلب عليهم استعمال النكات والإفراط في مراعاة البديع وهم من القاضي الفاضل إلى هذا الوقت . . .

واقدم سبق الشيخ حسين المرصفي المستشرق الألماني بروكلمان ، والأستاذ حسن توفيق العدل المتخرج في دارالعلوم وأحد أساتذتها ، إلى مراعاة تسلسل العصور من الجاهلية إلى الإسلام فما بعده في تدريس الأدب العربي ، وهي الطريقة التي أصبحت سائدة بعد ذلك في كتب الأدب العربي وتاريخه ككتاب جرجي زيدان ، وكتاب الوسيط للشيخ أحمد الإسكندري ، وكتاب تاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات . ومن حسنات الشيخ حسين المرصفي في كتاب « الوسيلة الأدبية » أنه خلص القواعد « والأحكام التي اشتملت عليها العلوم الآلية من سواقات الشبهات ، وتناقض العبارات ، حتى يسهل عليك ضبطها وجودة حفظها ، ويتهيأ لك ملاحظتها متى شئت » ولكي « يبتدئ الطالب بتحصيل الفنون الأصلية صافية نقية من

الشبهات والاعتراضات وإيراد العبارات المنقوضة . ج ١ ص ٢١٤ . وبهذا التلخيص والتخليص من الشوائب والمحاكمات والمناقضات كانت أبواب النحو والصرف والبلاغة في كتاب « الوسيلة الأدبية » مطلباً سهلاً المنال لكل طالب ، وخلت من التعقيدات والشبهات التي كانت في كتب الأقدمين . وبهذا أيضاً مهد الشيخ حسين المرصفي السبيل لكتب جديدة في قواعد اللغة العربية والبلاغة والصرف ألفها متخرجون في دار العلوم من تلاميذه وتلاميذ تلاميذه ، ككتب « الدروس النحوية » التي تخرج بها كثير من طلبة المدارس حتى العقد الثالث من القرن العشرين .

### نصوص مختارة من الوسيلة الأدبية

● « إن أنفس الشعراء من العرب لم يتفقوا على سلوك طريق بعينها - يعنى في الأساليب - وإنما هي مذاهب مختلفة ، وطرق متشعبة كما قال الله تعالى في صفتهم : « ألم تر أنهم في كل واد يهيمون » . فليس هناك طريق معينة يلتزمها السالك ، وإنما المدار على أن توافق التراكيب التي يستعملها المستعمل تراكيب العرب ، حسب ما بينته القوانين العلمية . على أنه لا يصح تقليد العرب في جميع ما نطقوا به . فقد عرفت مما سلف أن بعض كلامهم يجب اجتناب مثله ، وأنهم لا يتابعون إلا فيما كان أوفق للغرض من الكلام ، وهو التفاهم ، وفي خصوص الشعر والإنشاء من التأثير في الطباع وتحويلها إلى الميل الذي يريده الشاعر والكاتب . ففي الحماس مثلاً يكون الكلام مهيجاً للقوى ، مثيراً للغضب ، باعثاً على الحمية . وفي الغزل يكون ساراً للنفس ، مريحاً للخواطر . وفي العتاب هادياً للموافقة ومولداً للرضى ، إلى غير ذلك مما تضطرك إلى معرفته مطالعة الأحوال من جهة الإيصال إلى المرغوب ، والحماية من المرهوب . فتقرر بجميع ما سلف أنه لا طريق لتعلم صناعة الإنشاء إلا حفظ كلام الغير

وفهمه وتميز مقاصده . وها أنا مستشهد على ذلك بما هو حاضر معنا في هذا العصر المخالف بالكلية للصور التي كان أمر الشعر والكتابة الصناعية قائماً ، ورغبات الملوك وأعيان الأمراء فيهما متوفرة ؛ إذ كانت الدولة عربية وأمراؤها من العرب أو من غيرهم ، وهم مضطرون لأنقان معرفة لسانهم ، حسب ما كانت تبعث الحاجة إليه ، ويتوقف تحصيل الأغراض عليه . وبتغير الدولة تتغير الأحوال ، فإن الكتابة الصناعية بلسان الدولة القائمة باللغة درجتها باللسان العربي أو أعلى ، كما تسمعه من العارفين بطرائف اللسانين ، ومحاسن اللغتين . وليس يقوى أمر كما هو بديهي إلا بحسب قوة الحاجة إليه . هذا الأمير الجليل ، ذو الشرف الأصيل ، والطبع البالغ نقاؤه ، والذهن المتناهي ذكاؤه محمود سائى باشا البارودى ، لم يقرأ كتاباً في فن من فنون العربية ، غير أنه لما بلغ سن العقل ، وجد من طبعه ميلاً إلى قراءة الشعر وعمله ، فكان يستمع بعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين ، أو يقرأ بحضرته ، حتى تصور في برهة يسيرة هيات التراكيب العربية ، ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات والمخفوضات حسب ما تقتضيه المعاني والتعلقات المختلفة ، فصار يقرأ ولا يكاد يلحن . وسمعت مرة يسكن ياء المنقوص والفعل المعتل بها المنصوبين ، فقلت له في ذلك ، فقال : هو كذا في قول فلان ، وأنشد شعراً لبعض العرب ، فقلت : تلك ضرورة ، وقال علماء العربية إنها غير شاذة ، ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم ، حتى حفظ الكثير منها دون كلفة ، واستثبت جميع معانيها ، ناقداً شريفها من خسيسها ، واقفاً على صوابها وخطئها ، مدركاً ما كان ينبغي وفق مقام الكلام ، وما لا ينبغي . ثم جاء من صنعتته الشعر اللائق بالأمراء ، ولشعر الأمراء كأبي فراس والشريف الرضى والطغرائى تميز عن شعر الشعراء كما ستراه . . . » .

● « وعلى أن ليس من طبعي أن أقول الشعر  
إما لفوت أو أن تحصيل وسائله ، ولم تكن إذ ذاك دواع  
ترشد إليه . وإما لأن الاستعداد الذي سلف التنبيه على  
أن لا بد منه لم يكن في خليقتي ، أنطقني حبه - يريد  
محمود سامي البارودي - بأبيات أجملت فيها صفته  
وهي هذه :

زكا أميري طبعاً واعتلى شرفاً  
فدار حيث تدور الشمس والقمر  
ونال ما نال عن كد الرجال فلا  
من عليه لشخص حين يفتخر  
بفضله كل أهل الأرض معترف  
كما تصادق فيه الخبر والخبر  
لا يجهل الرتبة العليا يعمرها  
ولا يتيه بها ما أعظم الخطر  
صحبه وهو سر في مخايله  
حتى تحير من إعلانه الكبر  
فما أخذت عليه شبه بادرة  
ولا تخيلت أمراً منه يعتذر  
أدامه الله نقني من فضائله  
ومن فواضله ما أنبت الشجر

وإلى هنا ما أظن إلا أنك تحققت بمعرفة تميز شعر  
الأمراء بما يظهر عليه من آثار عزة النفس ، ويشمل  
نواحيه من البراعة والمتانة ، ويلوح فيه من تخير  
الألفاظ ، برعاية ما هو أوفق بالأدب ، أو الأليق  
بالمدح ، أو الأوقع في الزجر ، أو الأجلب للعطف  
والرضى ، أو الأدخل في النصيحة ، أو الأنسب  
بالغزل ، أو الأهيح في الحماس إلى غير ذلك من  
المقامات ، وبانحصار أغراضه فيما أمر بقصره عليه  
أبو نواس حيث يقول :

الشعر ديوان العرب أبداً وعنوان الأدب  
لم أعد فيه مفاخرى ومديح آبائي النجب

ومقطعات ربما حليت منهن الكتب  
لا في المديح ولا الهجاء ولا الجون ولا اللعب  
وتبعه المترجم - يريد محمود سامي البارودي -  
في هذا المعنى وزاد عليه في الإحسان حيث يقول :

الشعر زين المرء ما لم يكن وسيلة للمدح والذام  
قد طال ما عز به معشر وربما أزرى بأقوام  
فاجعله فيما شئت من حكمة أو عظة أو حسب نام  
واهتف به من قبل تسريحه فالسهم منسوب إلى الراي  
ونبه بقوله : « واهتف به من قبل تسريحه » على  
أنه لا ينبغي أن يكتب الشاعر بالنظرة الأولى ، فللنفس  
خداع ، وربما تنبت بعد أن غفلت ، واستقبحت  
ما استحسنت . ولذلك يقول الأول :

لا تعرضن على الرواة قصيدة  
ما لم تبلغ قبل في تهذيبها  
فإذا عرضت الشعر غير مهذب

عدوه منك وساوسا تهذي بها  
ويروى أن زهيراً أحد مشاهير شعراء الجاهلية كان  
يقول القصيدة في ستة أشهر ، ثم يرددها في نفسه ويكرر  
النظر فيها ستة أشهر . ولذلك تسمى قصائده بالحوليات .  
ولم كان صعوبة الشعر والنثر أشد منه في ذلك ، من جهة  
تخير الألفاظ وتلازمها ، وتناسب المعنى لتبين جودة  
السباق يقول الخطيئة :

الشعر صعب وطويل سلمه  
إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه  
هوت به إلى الخضيض قدمه  
والشعر لا يسطيعه من يظلمه  
ولم يزل من حيث يأتي يحرمه  
يريد أن يعربه فيعجمه  
من يسم الأعداء يبق ميسمه

من يظلمه : أي يتكلفه ولا يأتي به في إبانته :  
ويريد أن يعربه : أي يأتي به عربياً ، بوضع الألفاظ

في مواضعها اللاتقة بها ، وسلامة التركيب مما يبعد فهم  
المعنى منه . وقوله : من يسم الأعداء ، إشارة إلى أن  
وضع الشيء في موضعه ، كما يعترف به ذوو الإدراك  
إذا وقفوا عليه ، موجب لبقائه وارتباطات العناية به .  
ولذا قد عرفت أن لا سبيل لمعرفة الصناعة إلا بكثرة  
الحفظ ورعاية ما نهناك على رعايته ، فقد آن أن نورد  
لك ما يكون مثالا لما ينبغي أن تحصله للحفظ وترديد  
النظر فيه من قصائد لمشاهير الشعراء .

وينبغي بحسب نشأة الشعر وما عرض له من التغير  
أن نجعل الشعراء في ثلاث طبقات : الطبقة الأولى  
للعرب جاهليين وإسلاميين من المهلهل إلى بشار بن  
برد ، والثانية للمحدثين الذين كانوا يحرصون على

موافقة العرب ، ويجهدون في سلوك طرائقهم من  
أبي نواس إلى من قبل عبد الرحيم المعروف بالقاضي  
الفاضل ، والثالثة بالشعراء الذين غلب عليهم استعمال  
النكات والإفراط في مراعاة البديع ، وهم من القاضي  
الفاضل إلى هذا الوقت : الطبقة الأولى : قيل إن  
« عديا » الملقب بالمهلهل هو أول من أطال الشعر  
ورقعه ، ولذلك لقب المهلهل ، من قولهم : ثوب  
لهل ، إذا لم يكن مدامج الخيوط ، بحيث يشف  
عما وراءه . وإنما كانت الشعراء قبله تقول قطعاً  
تذكر فيها الوقائع وتفخر . ولكن اتفقت كلمة العلماء  
على أن أول من جود الشعر وأطال القصائد ، وجعلها  
مشملة على أصناف من المعاني هو امرؤ القيس .

